مبادئ تدريب الجيش الإسلامي في عصر النبوة

للأستاذ/ محمد جمال الدين محفوظ

ضرورة التدريب

التدريب على القتال من أهم الضرورات الحيوية لبناء القوة الرادعة التي أمر الله تعالى بإعدادها في قوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...» (١) ويستخلص من ذلك مايلي:

(١) أن تكون الكفاءة القتالية للمسلمين على النحو الذي يوقع الرهبة في قلوب الأعداء ويخيفهم من عاقبة عدوانهم، فيمتنعون عن العدوان تحسبًا للنتائج التي لن تكون في صالحهم.

(٢) وأن يكون المسلمون قادرين - في حالة تعرضهم للعدوان - على أن يوقعوا بالمعتدي هزيمة تردعه وتوقع الرهبة في قلبه بحيث لايفكر في العودة مرة أخرى إلى العدوان عليهم.

(٣) وأن يحافظ المسلمون - بالمرابطة واليقظة والحذر - على درجة عالية من الاستعداد القتالي والتأهب لرد أي عدوان في جميع

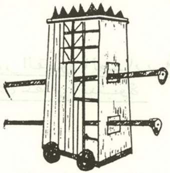

دبابة مزودة برأس الكبش

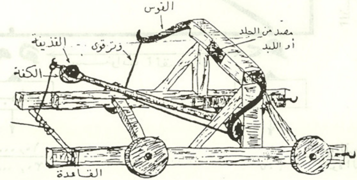
القوس
مصد من الجلد
أو اللبد
وتر قوي
القذيفة
الكفة
القاعدة

منجنيق لقذف الأثقال

الأوقات وتحت كل الظروف .

*** وينبه المولى جل شأنه إلى أن العدو يريد أن نتهاون في التدريب ونتخلى عن السلاح فيجد فرصته في النيل منا، وهو بعض مايفهم من قوله سبحانه: « ...ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة...»**[٢].

* من أجل ذلك عُني الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، بتدريب رجاله على القتال عناية فائقة، ووضع لذلك خير المبادىء والأساليب، وقد ظهرت نتائج هذا التدريب في المعارك التي خاضوها جهاداً في سبيل الله، حيث أثبتوا عملياً قدرتهم على القيام بجميع أشكال العمليات العسكرية بكفاءة عالية ومن ذلك على سبيل المثال :

(١) أعمال الاستخبارات والحرب النفسية .
(٢) مفارز (دوريات) الاستطلاع ومفارز القتال .
(٣) الإغارات .
(٤) أعمال الحراسة والوقاية .
(٥) العمليات الدفاعية وتنظيم المواقع الدفاعية والخنادق الدفاعية .
(٦) الهجوم على القرى والمواقع الحصينة (في قتالهم ضد اليهود) .
(٧) مسير الاقتراب (التقدم نحو أرض المعركة) وقد قام المسلمون بمسيرات طويلة شاقة في مختلف الظروف والأحوال ليلاً ونهاراً.
(٨) العمليات الهجومية ليلاً ونهاراً .
(٩) أعمال الحصار واستخدام أسلحة الحصار ودك الحصون كالمنجنيق .
(١٠) أعمال المطاردة .

* وبذلك أثبت المسلمون منذ أربعة عشر قرناً ماقرره العلم العسكري حديثاً وعبر عنه فيلسوف الحرب كلاوفتز: « إن القوات العسكرية الماهرة

المدربة جيدًا، يمكنها أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية»(٣).

ونتناول فيما يلي المبادئ التي قررها الرسول ،صلى الله عليه وسلم، لتدريب الجيش كما نستخلص منها الدروس المستفادة لكي ينتفع بها المسلمون اليوم .

أولاً : تحقيق التفوق على العدو في الكفاءة القتالية :

* حدد الرسول ،صلى الله عليه وسلم، «المستوى» الذي ينبغي أن يصل إليه المسلمون بالتدريب وهو أن يكونوا متفوقين على العدو في الكفاءة القتالية وجعل ذلك من مقتضيات الردع وإرهاب العدو كما قدمنا .

* ونضرب لذلك مثلاً في مجال الرماية: فقد كانت مهارة الفرس في الرماية مهارة فائقة يقول عنها الطبري: «بلغ من مهارة الفرس في الرماية أن أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكها بالنشاب (السهم)»(٤)، وفي يوم ذي قار قال حنظلة بن ثعلبة لقومه: «إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء» وقال آخر لقومه أيضًا: «لاتستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها»(٥) وقد أيد «النويري» امتياز الفرس بالرمي في قوله: «لم تزل الفرس تفتخر بالرمي في الحروب والصيد»، ومما يدل على براعة العرب في استخدام السيف وامتياز الفرس بالقوس، قول أعشى قيس في يوم ذي قار:

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظل الهام يقتطف(٦)

* وقد أدرك الرسول ،صلى الله عليه وسلم، تفوق الفرس على العرب في الرمي فقال لأصحابه عنهم: «هم أقوى منكم رمية»(٧)، ومن ثم كان اهتمامه عليه الصلاة والسلام برفع مستوى كفاءتهم في الرمي إلى أعلى المستويات ومن ذلك مايلي :

(١) اعتباره الرمي جماع القوة

فعن عقبة بن عامر ،،رضي الله عنه،، قال: «صعد رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، المنبر يومًا فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. ﴾ ثم قال: « ألا إن القوة الرمي، إن القوة الرمي»(٨).

(٢) واعتباره طريقًا لدخول الجنة

فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والمُمِدَّ به (أي رجل الإمداد بالذخيرة)»(٩)، ومر ،صلى الله عليه وسلم، بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمي، فنزع نعليه وقال: «روض من رياض الجنة».. أي أنه ،،صلى الله عليه وسلم،، جعل لمكان التدريب على الرمي قدسية توازي قدسية رياض الجنة التي ينبغي على المسلم خلع نعليه فيها.. وقال أنس: ماذكرت القوس عند النبي عليه الصلاة والسلام إلا قال: «ماسبقها سلاح إلى خير قط»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مشى بين الغرضين كان له بكل خطوة حسنة»(١٠) (والغرض هو مايحاول الرامي إصابته) كما قال عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يلهو به ابن آدم باطل إلا ثلاثة: رمية عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق».(١١)

(٣) ومشاركته أصحابه في التدريب

فقد خرج ،صلى الله عليه وسلم، مع نفر من بني أسلم ينتضلون بالسوق (أي يتسابقون في الرمي) فقال: « ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان، فأمسك أحد الفريقين، فقال: « مالكم لاترمون؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا فأنا معكم

كلكم»(١٢).

والمراد بالمعية: معية القصد إلى الخير.

(٤) الإشادة بالمتفوقين في الرمي

فقد كان عليه الصلاة والسلام يقول لسعد بن أبي وقاص وهو يرمي بين يديه في معركة أحد (وكان يجيد الرمي) : « ارم فداك أبي وأمي،» وما جمع النبي ،صلى الله عليه وسلم، أبويه لأحد غير سعد، يقول الإمام علي ،،رضي الله عنه،،: «مارأيت رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: ارم فداك أبي وأمي»(١٣)، وقد كان سعد يفخر بهذا التكريم فيقول ،رضي الله عنه،: «جمع لي النبي ،صلى الله عليه وسلم، أبويه يوم أحد»(١٤)

* وقد كان من آثار عناية الرسول ،صلى الله عليه وسلم، الفائقة بتدريب أصحابه أنهم بلغوا في الرمي مستوى عاليًا جدًا حتى استحقوا أن يطلق عليهم «رماة الحدق»، أي أن الرامي منهم كان إذا أراد تصويب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها، وقد شهد التاريخ بذلك ومن ذلك أنه في فتح الأنبار أمر خالد بن الوليد رُماته أن يرموا حماة الحصن المشرفين من أعلاه، وأن يتوخَّوا العيون، ففقأوا يومها ألف عين حتى عُرفت تلك الموقعة بـ «ذات العيون»(١٥)

ثانيًا: التدريب على استخدام الأسلحة والفروسية

* وبالإضافة إلى التدريب على الرمي، فقد كان النبي ،صلى الله عليه وسلم، يحث المسلمين ويشجعهم على التدريب على الضرب بالسيوف والطعن بالرماح والحراب والتمرس بأعمال القتال حتى لقد سمح باتخاذ المسجد ميدانًا للتدريب، عن أبي هريرة ،رضي الله عنه،: «بينا الحبشة يلعبون عند النبي،صلى الله عليه وسلم، بحرابهم، دخل عمر فأهوى إلى

الحصباء فحصبهم بها، فقال: دعهم ياعمر»(١٦)

وقد قال الرسول ،صلى الله عليه وسلم، ذلك لأن المسجد موضوع لأمن جماعة المسلمين، فأي عمل من الأعمال يجمع بين منفعة الدين وأهله، فهو جائز فيه، مباح بين جدرانه .

* كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشجع المسلمين على اقتناء الرمح والقوس بالإشادة بهما في قوله لما رأى القوس: «بهذا وبرماح القنا تفتحون البلاد»، وقوله: «جُعل رزقي تحت ظل رمحي»(١٧)، وقوله: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(١٨).

* وحث عليه الصلاة والسلام المسلمين على التدريب على ركوب الخيل وعلى فنون الحرب بها فقال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة»(١٩)، وقال: «عاتبوا الخيل فإنها تُعتب»(٢٠) أي أدبوها وروضوها للحرب والركوب فإنها تتأدب وتقبل العقاب .

كما رغب عليه الصلاة والسلام في اقتناء الخيل والعناية بها، فعن أبي هريرة ،رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ،صلى الله عليه وسلم،: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريَّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»(٢١)، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»(٢٢).

وجعل عليه الصلاة والسلام للفرس – عند توزيع الغنائم سهمين ولصاحبه سهماً وجعل للراجل سهماً واحداً، وذلك لكي يستعين الفارس بالسهمين الزائدين على إعاشة فرسه وإعدادها للحرب، عن ابن عمر ،،رضي الله عنهما، قال: «قسم رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً قال فَسَّرهُ نافع فقال: إذا كان مع

الرجل فرس فله ثلاثة أسهم فإن لم يكن فرس فله سهم»[٢٣].

كما أن الإسلام أعفى المسلم من صدقة (زكاة) فرسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي ،صلى الله عليه وسلم،: «ليس على المسلم في فرسه وغلامه صدقة»[٢٤].

وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الأشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما ويأخذ أسهمهما كما فعل الزبير بن العوام في غزوة خيبر وفي حروب الشام المختلفة، وروى الشافعي من حديث مكحول: «أن النبي ،صلى الله عليه وسلم، أعطى الزبير خمسة أسهم لما حضر خيبر بفرسين».

ثالثًا: تقوية الأبدان

* مدح الإسلام المؤمن القوي، فقال الرسول ،صلى الله عليه وسلم،: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[٢٥].

* وقد حث الإسلام على تعلم السباحة وركوب الخيل مسرجة ومعراة، والسباق في الجرى، والسباق بين الفرسان على الخيل أو الإبل، والمصارعة ورفع الأثقال إلى غير ذلك من ألوان التربية البدنية والرياضية التي تبني الجسم القوي السليم، فعن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري أن رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، قال:«علموا أبناءكم السباحة والرماية ونعم لهو المؤمنة في بيتها المغْزَل، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك.»[٢٦]

وكان الرسول ،صلى الله عليه وسلم، يتمتع بلياقة بدنية قوية فكان يركب الفرس عارية فيروضها على السير، وكان يداعب من يحب بالمسابقة في العدو وكان يصرع الرجل القوي ومن ذلك أن «ركانة بن عبد يزيد صارع النبي ،صلى الله عليه وسلم، فصرعه النبي ،صلى الله عليه وسلم، مرتين أو ثلاثًا وكان ركانة هذا من أشد قريش»[٢٧]، وعن

عائشة ،رضي الله عنه،ا قالت: «سابقني رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: هذه بتلك»(٢٨).

وعن سلمة بن الأكوع قال: «بينما نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لايُسبق شَدًّا، فجعل الأكوع يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟، هل من مسابق فقلت: أما تُكرم كريماً ولاتهاب شريفًا؟ قال: لا، إلا أن يكون رسولَ الله ،صلى الله عليه وسلم،، قال: قلت يارسول الله بأبي أنت وأمي، ذرني فلأسباق الرجل، قال: إن شئتَ، قال: فسبقته إلى المدينة».(٢٩)

رابعًا: إتقان التدريب:

* يحث الإسلام على إتقان التدريب لبلوغ أعلى قدر من الكفاءة القتالية، يقول الله تعالى: «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»(٣٠)، ويقول الرسول ،صلى الله عليه وسلم،: «إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يتقنه»(٣١).

* ومن مقتضيات هذا المبدأ ألا يكتفي المسلم بالمستوى الذي بلغه، بل عليه أن يُجَوِّد فيه ويرفع مستواه بالمزيد من المعرفة والتمرين، فقد أمر الله تعالى نبيه – وهو قدوة المسلمين – أن يقول: «رب زدني علماً» وهذه المسئولية تقع على عاتق الفرد قبل أن تقع على عاتق قيادته، والله تعالى يقول: «ولتسألن عما كنتم تعملون»(٣٢).

* والمنافسة من أفضل الحوافز على الإجادة والإتقان، إذ أنها – من وجهة نظر علم النفس – تحرك في الإنسان دافعًا ذاتيًا لكي يتفوق على غيره، لأن الإنسان بطبيعته لايحب أن يتميز عليه غيره .

من أجل ذلك كان الرسول ،صلى الله عليه وسلم، يشجع على المسابقات في كل مجالات التدريب البدنية والرياضية والرمي واستخدام السلاح والفروسية، بل لقد كان يشترك بنفسه فيها حفزًا للهمم وإذكاءً لروح

التنافس كما ذكرنا. فعن عبد الله بن عمر ،رضي الله عنه،: «أن رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، سابق بين الخيل التي أُضمِرَت(٣٣) من الحَفْياء وأَمَدُها ثنيةُ الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضَمَّر من الثنية إلى مسجد بني زُرَيْق، وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق»(٣٤)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما، «أن النبي ،صلى الله عليه وسلم، سابق بين الخيل وأعطى السابق»(٣٥).

وأوقع ،صلى الله عليه وسلم، السباق بين الإبل، فسابق بلال ،رضي الله عنه، على ناقته ،صلى الله عليه وسلم، القصواء فسبقت غيرها من الإبل، وسابق أبو سعيد الساعدي ،رضي الله عنه، على فرسه ،صلى الله عليه وسلم، الذي يقال له الظراب فسبق غيره من الخيل.(٣٦)

ومن أمثلة التنافس الشريف في خدمة الدين ماوقع بين الأوس والخزرج بعد أن جمع كلمتهم وألف بين قلوبهم، حيث تحولت عصبيتهم القبلية إلى تنافس شريف وتسابق عجيب في خدمة الدين، فصار الأوس والخزرج يتجهون إلى هدف واحد هو إرضاء الله ورسوله، ولكن يتسابقون في هذا السبيل ويتنافسون، ويأبى كل فريق منهما أن يسبقه الآخر بميزة أو يتقدم عله بفضل أو يزيد عليه في تضحية وجهاد.. وفي ذلك يقول ابن هشام.. «وكان مماصنع الله لرسوله ،صلى الله عليه وسلم، أن هذين الحيَّين من الأنصار (الأوس والخزرج) كانا يتصولان مع رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، تصاول الفحلين، لاتصنع الأوس شيئًا فيه دفاع عن الرسول والإسلام إلا قالت الخزرج: والله لايذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، فلاينتهون حتى يفعلوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك».(٣٧)

خامسًا: استمرار التدريب:

* ومن أهم مبادئ التدريب التي قررها الرسول ،صلى الله عليه وسلم، مبدأ «الاستمرار» الذي يحقق فائدتين كبيرتين: الأولى. هي المحافظة على مستوى كفاءة المسلمين القتالية ليكونوا قادرين على القتال في أية لحظة، والثانية، هي دعم تلك الكفاءة والارتفاع بها إلى مستوى أفضل .

* وقد حذر الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، من الانقطاع عن التدريب فقال:

- «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو فقد عصى».(٣٨)
- «من ترك الرمي بعدما علمه فإنما هي نعمة جَحَدها»(٣٩)

ويشير هذا الحديث إلى أن التدريب على الرمي « نعمة» لها حق سائر النعم، من الحفاظ عليها، والقيام بشكرها، والاستزادة منها، وهي نعمة عظيمة في ذاتها، كما أنها نعمة باعتبار مايترتب عليها من الصبر والمصابرة والمرابطة والمجاهدة في سبيل الله، ويكفي أن المرابط لاتمسه النار يوم القيامة.. يقول الرسول ،صلى الله عليه وسلم،: «عينان لاتمسهما النار يوم القيامة، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٤٠)

وقد كان إدراك المسلمين لقيمة مبدأ الاستمرارفي التدريب من أكبر الحوافز لهم على دفع الملل الذي قد ينتاب النفوس من التكرار والاستمرار، قال عطاء بن أبي رباح: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاريين ،،رضي الله عنه،ما، يرتميان (من التدريب على الرمي) فملَّ أحدهما فجلس، فقال له صاحبه: أجلستَ؟ أما سمعت رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، يقول: كل شيء: ليس من ذكر الله فهو سهو ولهو إلا أربعة: مشي الرجل بين الغرضين، وتأديبه فرسه، وتعلمه السباحة، وملاعبته أهله؟ (والغرضان: تثنية غرض وهو مايتخذه الرماة أثناء التدريب للرمي

عليه مثل لوحات التصويب وغيرها كما قدمنا.)

كما بلغ اهتمام المسلمين بمبدأ الاستمرار في التدريب أن بعضهم كان يتدرب حتى في يوم العيد فقد قالت عائشة ،رضي الله عنه،ا: « وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب»(٤١)

سادسًا : استخدام الحواس والعقل:

* سبق الإسلام في تقرير مبدأ استخدام الحواس والعقل وهو من المبادئ العامة التي روعيت في الجيش وهو ماتأخذ به الجيوش حديثًا وخاصة بعد أن بدأت تستخدم علم النفس في أوجه نشاطها المتعددة ومن بينها التدريب، وقد اعتبرت الجيوش هذا الأمر تطورًا كبيرًا يدخل حياتها بعد أن كان التدريب يتسم « بالجمود» لاعتماده على أساليب التلقين والتقليد والحفظ، وقد أصبح مقياس التقدم في أساليب التدريب استخدام أكبر عدد مستطاع من الحواس فيه، وظهرت وسائل الإيضاح التي تساعد في ذلك وهي الوسائل السمعية والبصرية، والسمعية البصرية... كما صاحب هذا التطور أيضًا تطور آخر هو استخدام الأسلوب الذي يجعل الجندي يستخدم عقله فيفكر في الموقف الذى يواجهه ثم يقرر التصرف الذي يهديه إليه تفكيره»(٤٢).

* فالإسلام يدعو المسلمين إلى استعمال الحواس والعقل معًا في كل تجاربهم المادية والمعنوية فكلاهما متمم لآخر، ويشير الله تعالى في تعداد نعمه علينا إلى الحواس والعقل فيقول جل شأنه :

- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٤٣)

كما جعلنا الله سبحانه «مسئولين»عن استخدام الحواس والعقل فقال جل شأنه:

- ﴿ .. إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.(٤٤)
- ﴿ .. وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.(٤٥)

* وليس من شك في أن الإسلام هو دين الفكر والعقل والعلم، وقد ارتفع بالعقل وقدره حق التقدير وجعله ميزة للإنسان استحق بها الخلافة في الأرض، وبها احتمل الأمانة التي عجزت الجبال والأرض والسموات عن حملها :

﴿ ... فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ... ﴾(٤٦)

والعقل في ميزان الإسلام هو التعبير الواقعي عن الرشد والأهلية لتحمل المسئوليات والتبعات والتكاليف، كما أن له قيمته في حركة الحضارات إنشاءً وإضافة وتطويرًا، فقد حث الإسلام على التفكر والتفكير والمشاهدة والتأمل والنظر في ملكوت السموات والأرض لاستنباط الحقائق العلمية، والوصول إلى معرفة نواميس الكون، وهو مايفهم من قول الله سبحانه وتعالى :

- ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ .. ﴾(٤٧)
- ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ .. ﴾(٤٨)
- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ. ﴾(٤٩)
- ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . ﴾(٥٠)

وهكذا أمر الإسلام - منذ أربعة عشر قرنًا - باتباع المنهج العلمي في مناحي الحياة، وأمر باستخدام العقل وسائر الحواس استخدامًا أساسه المشاهدة، فالعين يجب أن ترى، والأذن يجب أن تسمع، والعقل يجب أن ينظر ويفكر، وهذا هو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الحديثة كما يشهد

بذلك التاريخ والمنصفون من علماء الغرب .

سابعًا: تدريب القادة :

* وقرر الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، أن يشمل التدريب على القتال الجنود والقادة على حد سواء، وألا يكتفي الجيش بتدريب رجاله فحسب، بل عليه أيضاً أن يقوم بتدريب قادته، كما قرر عليه الصلاة والسلام أن كل قائد مسئول - في الوقت نفسه - عن إعداد نفسه والتزود بالمعارف والخبرات اللازمة له .

*وقد عبر المشير مونتجمري عن أهمية إعداد القادة وتدريبهم في الجيوش الحديثة فقال: «والقادة عندما يخططون للمعركة يواجهون دائماً بالضباب الكثيف، ولكن براعتهم وحكمتهم في التخطيط تبدد هذا الضباب الكثيف أمام الجنود، وفي اعتقادي أن القادة المهرة لايولدون قادة ولكن «يُصنعون» ، فلا يمكن للضابط أن يصل إلى مناصب القيادة العليا بدون دراسة طويلة، فالقيادة في الحرب ماهي إلا دراسة دائمة ، وإذا أهملها القائد فلن ينجح»(٥١)

* والباحث المدقق يستطيع أن يستخلص ماجرت عليه سنة الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، في مجال إعداد القادة وتدريبهم كما يلي:

١- اكتساب القائد لصفات المقاتل:

فقد قرر عليه الصلاة والسلام أن بناء المقاتل أساس لبناء القائد، فلايقود المقاتلين في المعركة إلا مقاتل تجتمع له صفات المقاتل ومهاراته وكل السجايا والفضائل الحربية كالشجاعة وقوة التحمل والخشونة والحزم والانضباط والطاعة وتقدير المسئولية والنظام والإيمان بالحق والقتال عن عقيدة، من أجل ذلك مارس أصحاب الرسول ،صلى الله عليه وسلم، كل أشكال التدريب من تربية بدنية ورياضية وفروسية واستخدام الأسلحة ورماية

لافرق بين جندي وقائد.. وقد ضرب عليه الصلاة والسلام المثل على نفسه بمشاركته بنفسه في التدريب والمسابقة فيه كما ذكرنا. في الفقرات السابقة أولاً وثانياً وثالثًا .

٢ - التحلي بصفات القيادة:

فلقد كان الرسول ،صلى الله عليه وسلم، هو قائد الجيش ومعلمه، وصاحب المدرسة التي لم يتخرج منها القادة العسكريون فحسب، بل تخرج فيها أيضاً قادة أمم، ورجال إصلاح، وعلماء وفلاسفة، ورواد حضارة.

وكان عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٥٢)، وهو القائد الذي اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة، وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه، واستوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولابعده حتى خاطبه الله بقوله: «وإنك لعلى خلق عظيم»(٥٣)، وحتى حدث هو عن نفسه فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وإذا كان القادة العسكريون يتعلمون فنون القيادة والحرب على يد غيرهم من القادة والمعلمين في المعاهد العسكرية، فإن الرسول ،صلى الله عليه وسلم، «لم يأخذ عن غيره» بل «أخذ عن الله جل شأنه»، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٥٤).

وقد جرت سنته ،صلى الله عليه وسلم، في غرس صفات القيادة في أصحابه على تدريبهم على التخطيط وإدارة المعارك وتعيينهم لقيادة السرايا، وقيادة وحدات الجيش تحت قيادته المباشرة وهو ما نفصله فيما بعد.

فلاعجب إذن أن يُظهر عليه الصلاة والسلام وأن يظهر تلاميذ

مدرسته بالتالي في أمور الحرب مالايتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها، واتخذوها صناعة، من عبقرية فذة في القيادة والتخطيط وإدارة المعارك الحربية وهو ماشهد به التاريخ . ومن ذلك قول المشير مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) تحت عنوان « المسلمون قوم لايقهرون»: «في غضون مائة سنة امتدت الإمبراطورية الإسلامية من بحر الأورال إلى أعالي النيل ومن تخوم الصين إلي خليج بسكاي ... وفي عام ٦٣٦ حشد الإمبراطور البيزنطي جيشًا مكونًا من خمسين ألفًا ليقاتل به العرب الذين كان جيشهم نصف عدد الجيش البيزنطي بقيادة خالد بن الوليد وقد أسفرت معركة اليرموك عن هزيمة الجيش البيزنطي وتشتتت صفوفه ولاقوا حتفهم على أيدي أهل الصحراء وأدى هذا إلى تقلص جبهة البيزنطيين حتى وصلت جبال طوروس.»(٥٥)

٣ - التدريب على التخطيط وإدارة المعارك:

عن أبي هريرة ،،رضي الله عنه،، قال: «مارأيت أحدًا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ،صلى الله عليه وسلم،»(٥٦)، ومن خلال تطبيق الرسول ،صلى الله عليه وسلم، لمبدأ الشورى – الذي أمره الله تعالى به: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٥٧). شارك المسلمون في عمليات التخطيط وإدارة المعارك بالتفكير والمناقشة وإبداء الرأي مماحقق لهم الفوائد التالية:

(١) التدريب على فن التفكير واستخدام العقل والتعبير عن الرأي .

(٢) والتدريب على حل المشكلات «بالطريقة العلمية» التي هي المدخل الصحيح للوصول إلى القرار السليم علي أساس من تحديد الأهداف بوضوح، وفحص وتحليل المعلومات والمعطيات، واستعراض الحلول والبدائل المختلفة لحل المشكلة، واختيار الحل أو البديل الأفضل، ثم

اختيار هذا الحل وتقويمه، ومن خلال هذا التدريب يكتسب قادة المستقبل القدرة عل اتخاذ القرارت السليمة في الوقت المناسب وهي من أهم خصائص القيادة الناجحة .

(٣) تدريبهم على «المبادأة» والتصرف السليم في المواقف التي تواجههم دون الحاجة إلى الرجوع للقيادة الأعلى وخاصة في المواقف المفاجئة أو التي لاتحتمل التأخير، وذلك لأن مشاركتهم في مرحلة التخطيط تتيح لهم معرفة واسعة بنوايا القائد وأهدافه، وإحاطة وافية بجوانب الموضوع، تمكنهم من اتخاذ قراراتهم في المواقف بهدي تفكيرهم وحده...

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأخذ بالمشورة الصالحة « مهما كان مركز صاحبها» وينزل على الرأي الصواب، كما فعل عليه الصلاة والسلام مثلاً في غزوة بدر حين نزل على رأي الحباب بن المنذر ومشورته ونقل الجيش إلى موقع قريب من ماء بدر حيث أشار الحباب، (٥٨) ومن ذلك أيضاً أنه ،صلى الله عليه وسلم، أخذ بمشورة سلمان الفارسي في حفر خندق للدفاع عن المدينة في غزوة الخندق.(٥٩)

ثم إن الأخذ بالمشورة الصالحة ينطوي على الدروس الآتية :

- تطبيق القائد لمبدأ الشورى آية من آيات حسن القيادة، تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير، كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تجند كل مابين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام .
- تكريم صاحب الرأي ، فقد قال الرسول ،صلى الله عليه وسلم، للحباب : «أشرتَ بالرأي »(٦٠)
- تنفيذ مااستقر عليه الرأي له مغزى رفيع فوق النزول على الرأي هو

حفز همة كل فرد لأن يتقدم ويشارك بالرأي ممايعين على أن تأتي الخطط على أفضل وجه ممّن، كما يزيد من إيجابية المنفذين في العمل أو القتال لأنهم يؤدون عملاً «شاركوا» في التخطيط له.

٤ - تولى قيادة مهام القتال المحدودة:

ولاشك في أن تولي القيادة الفعلية هو تطبيق عملي للمعارف والمهارات تحت إشراف القائد المعلم وتوجيهه، وقد عهد الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم، إلى أصحابه بالقيادة في أشكال مختلفة من عمليات القتال المحدودة وهي ماسميت بالسرايا، ومن خصائص هذه العمليات أنها محدودة في أهدافها وفي القوة التي تتولاها، إذ تراوحت تلك القوة من بضعة أفراد إلى بضع مئات، وتحقق هذه العمليات الفوائد التالية :

(١) استطلاع أحوال العدو والدخول معه في تجربة لسبر أغواره واختبار قوته وقدراته القتالية وأساليبه في القتال.

(٢) دراسة طبيعة الأرض والطرق وغيرها من الظواهر الطبوغرافية .

(٣) تنمية الثقة في النفس لدى القادة ورفع روحهم المعنوية .

(٤) تنمية قدرات القادة على ممارسة القيادة على مستويات أكبر .

ومن أمثلة المهام المحدودة التي تولاها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم مايلي:

- دوريات الاستطلاع :

مثل سرية عبد الله بن جحش، وقوامها اثنا عشر رجلاً في رجب من السنة الثانية للهجرة (٦١).

- دوريات القتال :

مثل سرية حمزة، وقوامها ثلاثون رجلاً في رمضان من السنة الأولى للهجرة. (٦٢)

– الإغارات :

مثل سرية أبي سلمة، وقوامها مائة وخمسون رجلاً بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد في ذي الحجة من السنة الثالثة للهجرة.(٦٣)

٥ – قيادة وحدات الجيش تحت القيادة العليا للرسول

ومن صور تدريب القادة عمليًا أن الرسول ،صلى الله عليه وسلم، كان يعين أصحابه في قيادة الوحدات التي يتألف منها الجيش تحت قيادته في المعركة، ففي غزوة بدر مثلاً كان الجيش يتألف من كتيبتين كتيبة المهاجرين يقودها علي بن أبي طالب، وكتيبة الأنصار يقودها سعد بن معاذ(٦٤)، وفي غزوة فتح مكة كان الجيش يتألف من أربعة أرتال يقودها أربعة من القادة هم: الزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وسعد بن عبادة، وأبو عبيدة بن الجراح.(٦٥)

وهذا الأسلوب يفيد القادة من حيث أنه يتيح لهم ملاحظة أسلوب القائد المعلم في القيادة الحربية وإدارة المعارك والتصرف في مواقفها، وهي فرصة ممتازة للتعليم «على الطبيعة» واكتساب الخبرة القتالية، تحت إشراف القائد الأكبر والإفادة من توجيهاته وملاحظاته .

ثامنًا : محو الأمية وطلب العلم:

كان الرسول ،صلى الله عليه وسلم، حريصًا على تعليم المسلمين القراءة والكتابة ومحو أميتهم وذلك مبدأ عام روعي في الجيش، فقد أمر كل أسير كاتب من المشركين من أسرى بدر أن يعلم عشرة من الصحابة الكتابة والقراءة، وجعل ذلك سبيل تحرره وإطلاق سراحه، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل لهم رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة».(٦٦)

كما خطب عليه الصلاة والسلام أصحابه فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا. ثم قال: «مابال أقوام لايُفقّهون جيرانهم ولايعلمونهم ولايعظونهم، ولايأمرونهم ولاينهونهم، ومابال أقوام لايتعلمون من جيرانهم ولايتفقهون، والله ليُعلّمَن قوم جيرانهَم ويفقهونهم ويعظونهم، وليَعْلَمَنَّ قوم من جيرانهم يتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة، ثم نزل رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قالوا: الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين. فأتوا رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يارسول الله ذكرتَ أقوامًا بخير، وذكرتنا بشر فمالنا؟ فأعاد عليهم ماذكره في خطبته: «ليعلمن قوم جيرانهم .... أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا» فقالوا: يارسول الله، أنُفَطّنُ غيرنا؟ فأعاد عليهم ماقاله، ثم أعاد وأعادوا، فقالوا : يارسول الله أمهلنا سنةً، فأمهلهم وقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.(٦٧)

فالرسول ،صلى الله عليه وسلم، يعلن في هذه الخطبة الحرب على الأمية وعلى من يقصرون في التعليم أو طلب العلم، ويهدد الفريقين بالعقاب الشديد، وأعطى مهلة عام واحد للقضاء على الجهالة والجهال، وليس الأمر مقصورًا على الأشعريين وحدهم أوعلى علوم الدين وحدها، فإنه لم يخاطب الأشعريين بقوله: «أنتم المقصودون»، وقال: «لايفقهون جيرانهم ولايعلمونهم...»، فالدعوة عامة والمبدأ عام وهما غير خاصين بفئة معينة ولابزمن معين، ولابمعارف خاصة، وبهذا يكون الرسول الأمين ،صلى الله عليه وسلم، قد أعلن مبدأ مكافحة الأمية منذ أربعة عشر

قرنًا وهو الرسول الأمي المبعوث إلى قوم أميين، ولا عجب في هذا فإنه رسول الله الذي خاطبه الله بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.(٦٨)

وأشاد به في قوله جل شأنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٦٩)

تاسعًا: تأمين المسلمين ضد الإصابات أثناء التدريب:

وقرر الرسول ،صلى الله عليه وسلم، أنه من الضروري اتخاذ كل التدابير التي تمنع حدوث إصابات للأفراد في أثناء التدريب، وهو مانجده اليوم في التدابير التي تسمى «باحتياطات الأمن» وتتخذها الجيوش لتفادي وقوع إصابات سواء للجنود أو للمشرفين على تدريبهم، أو للمارة أو للمحيطين أو القريبين من ميادين التدريب .

وفي هذا المجال نذكر من توجيهات الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم، مايلي:

– عن أبي هريرة ،رضي الله عنه، عن النبي ،صلى الله عليه وسلم، قال: «لايشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لايدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار».(٧٠)

– وعن أبي بكرة قال ،صلى الله عليه وسلم،: «إذا أشار المسلم إلى أخيه المسلم بالسلاح فهما على حرف جهنم، فإذا قتله خرًا جميعا فيه».(٧١)

– وعن أبي هريرة ،رضي الله عنه، قال الرسول ،صلى الله عليه وسلم،: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه، وإن كان أخاه لأبيه

وأمه».(٧٢)

- وعن جابر قال: «نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يُتعاطى السيف مسلولاً».(٧٣)

- وعن أبي موسى الأشعري ،رضي الله عنه،: قال رسول الله ،صلى الله عليه وسلم،:

« من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك (أو ليقبض على نصالها بكفه) أن يصيب (أي حتى لا يصيب) أحدًا من المسلمين منها بشيء».(٧٤)

- وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يحل لمسلم أن يُروِّع مسلما».(٧٥)

عاشرًا: العناية بالأسلحة والمعدات:

* وقرر الرسول،،صلى الله عليه وسلم، أن العناية بالأسلحة والمعدات وصيانتها واجب يؤديه المسلم وفاءً بالأمانة التي في عنقه والتي يأمره الله أن يؤديها وأن يصونها، ومحافظةً منه على أدوات « القوة» التي أمر الله بإعدادها، وحرصاً منه على أدوات الجهاد في سبيل الله وظيفته الشريفة التي كرمه الله بأن اختاره لها (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) وإحساساً منه وإدراكًا لعواقب إهمال هذا الواجب كما أخبر الله تعالى في قوله:

﴿... وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً...» ﴾ (٧٦)

* ولذلك كان الرسول ،صلى الله عليه وسلم، الأسوة الحسنة حيث كان يناول ابنته فاطمة سيفه ويقول: « اغسلي عن هذا دمه يابُنية فوالله لقد صدقني اليوم .. وناولها علي بن أبي طالب سيفه وقال: وهذا أيضًا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم.»(٧٧)

* كما حث عليه الصلاة والسلام على العناية بالخيل ورعايتها:

– فعن نعيم بن أبي هند أنه عليه الصلاة والسلام أتي بفرس، فقام إليه يمسح عينيه ومنخريه بكُمِّ قميصه، فقيل: يارسول الله أتمسح بكم قميصك؟ فقال: «إن جبريل عاتبني في الخيل.»

– وعن جابر بن عبد اللّه، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّه، صلى الله عليه وسلم:

«إن اللّه تجوُز لكم عن صدقة الخيل والرقيق»(٧٨).

– وعن أبي هريرة، رضي اللّه عنه، قال، صلى الله عليه وسلم:

«ليس على المسلم في فرسه وغلامه صدقة»(٧٩).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل اللّه، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل اللّه»(٨٠).

– وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: «نهى رسول اللّه، صلى الله عليه وسلم، عن إخصاء الخيل والبهائم، ثم قال ابن عمر: فيهما نماء الخلق»(٨١)

حادي عشر: تكريم المعلم:

* إن التدريب على القتال – كما ذكرنا – ضرورة حيوية لبناء القوة وإعداد المجاهدين في سبيل الله، والمعلم الذي يتولى تدريب المجاهدين يؤدي دوراً عظيماً لأن قدرة الجيش على هزيمة العدو وإيقاع الرهبة في قلبه، تتناسب طردياً مع مستواه في التدريب والكفاءة والاستعداد القتالي.

* من أجل ذلك فإن الإسلام كرم المعلم وجعل له منزلة سامية ومكانة رفيعة كتلك المنزلة والمكانة التي جعلها للعلماء وذلك مبدأ عام روعي في الجيش، قال تعالى:

- ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ (٨٢)
- ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾(٨٣).

ويقول الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم،:

- «العلماء ورثة الأنبياء»(٨٤)
- «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»(٨٥)
- «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه»(٨٦)
- وعن أبي أمامة الباهلي قال: ذُكر لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال ،صلى الله عليه وسلم،: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال عليه الصلاة والسلام: « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير»(٨٧)
- وعن عبد الله بن عمرو قال: «خرج رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويُعلِّمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم،: « كُلٌ على خير: هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما» فجلس معهم».(٨٨)

ثاني عشر: التطور وملاحقة العصر:

* حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ملاحقة التطور في أسلحة القتال بتزويد الجيش بالأسلحة المعاصرة والتي لم يألفها من قبل وعلى تدريب المسلمين عليها ثم استخدامها في القتال، فقد كان جيش الإسلام يفتقر إلى أسلحة الحصار ودك الحصون مثل المنجنيق والدبابات،

فبعث الرسول ،صلى الله عليه وسلم، من أصحابه من يتعلم صنعة هذه الأسلحة، قال ابن هشام: «ولم يشهد حنيناً ولاحصار الطائف عُروة بن مسعود ولاغيلان بن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضُبور».(٨٩)

* وقد غنم المسلمون في غزوة خيبر أسلحة ثقيلة دبابات ومنجنيقاً وجدوها في حصن الصعب، وقد ورد في بعض كتب السيرة أن المسلمين نصبوا المنجنيق الذي وجدوه على أحد حصون منطقة الشق في خيبر ممادى إلى تسليم أهله، وقد روى ابن خلدون: « أن رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، همَّ بنصب المنجنيق على خيبر فلما أيقنوا الهلكة سألوه الصلح».(٩٠)

* وكانت الاستراتيجية العسكرية المعاصرة لعصر النبوة لدى القوى العظمى فارس وبيزنطة (الروم) تقوم على أساس أن الفرسان تشكل القوة الأساسية الضاربة في جيوشها، فحرص النبي ،صلى الله عليه وسلم، على ملاحقة ذلك المستوى المعاصر الذي تتفوق فيه الجيوش الأجنبية المحيطة بالدولة الإسلامية، وأكبر دليل على ذلك إجراء مقارنة بين قوة الفرسان في جيش الإسلام في عصر النبوة في أول معركة وهي بدر، وآخر معركة وهي تبوك:

- ففي غزوة بدر كانت قوة المسلمين ٣٠٥ من الرجال ومعهم فرسان اثنان.
- أما في غزوة تبوك فقد كانت قوة المسلمين ٣٠,٠٠٠ من الرجال منهم ١٠,٠٠٠ فارس.

ومن ثم نلاحظ مدى التطور الذي حدث لملاحقة مقتضيات العصر، فبعد

أن كانت نسبة الفرسان إلى قوة الجيش في أول معركة لاتذكر حيث كانت أقل من واحد بالمئة، فقفزت في آخر معركة في عصر النبوة إلى نسبة الثلث من مجموع القوة، وقد حدث هذا التطور في أقل من سبع سنوات، وأصبحت لجيش الإسلام قوته الضاربة المواكبة لعصرها، ولعل هذا يفسر شدة عناية الرسول ،صلى الله عليه وسلم، بتدريب المسلمين على الفروسية وتشجيعهم على اقتناء الخيول ورعايتها وتدريبها كما ذكرنا.

* وقد عمل المسلمون بعد عصر النبوة بسنة التطور والتجديد فتناولوا الأسلحة بالتحسين والتطوير، كما طوروا أساليبهم في القتال حتى أدهشوا في ذلك الفرس والروم، وقد اعترف بذلك الإمبراطور البيزنطي « ليو» مع ماعرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين، فقد نقل عنه ڤون كريمر أنه قال: «إن الجندي العربي ماكان يفترق عن الجندي البيزنطي في المؤن والسلاح.»(٩١)

أماعن استخدام أساليب جديدة للقتال فقد ذكر إدوارد عطية في معرض أسباب نجاح حملات الفتح الإسلامي: «استخدامهم (أي المسلمين) لتكتيكات واستراتيجية جديدة مناسبة مثيرة للإعجاب للوسط الذي تحركوا خلاله للانقضاض على أعدائهم ونعني بها الصحراوات غير المطروقة. وقد اشتملت تكتيكاتهم على استخدام فعال للفرسان التي لم يعرفها قط الروام والبيزنطيون، بينما لعب الجمل في استراتيجيتهم دوراً في منتهى الأهمية في حمل الوحدات عبر مسافات طويلة في زمن قصير نسبياً، حتى كانوا يتمكنون من الظهور في نقاط حاسمة على غير توقع ظهوراً يغير الموقف تماماً، كما حدث حين استجاب خالد بن الوليد لطلب العرب الذين كانوا يهاجمون دمشق، فعبر إليها من العراق ووصلها في أيام قليلة بالتعزيزات المطلوبة»(٩٢).

الخاتمة

والخلاصة، أن تدريب الجيش على القتال في تقدير الإسلام ضرورة حيوية لبناء القوة التي أمر الله تعالى بإعدادها للدفاع عن الأمة وردع أعدائها، وقد وضع له الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، المبادئ التالية:

١- ضرورة تحقيق التفوق على العدو في الكفاءة القتالية باعتباره من مقتضيات الردع وإيقاع الرهبة في قلب العدو .
٢- ضرورة تحقيق أعلى مستوى في استخدام الأسلحة وأساليب القتال .
٣- تقوية الأبدان .
٤- إتقان التدريب لبلوغ أعلى مستوى من الكفاءة القتالية .
٥- استمرار التدريب للمحافظة على الاستعداد القتالي في أية لحظة .
٦- استخدام الحواس والعقل وهو من المبادئ العامة التي روعيت في الجيش لصلتها الوثيقة بالكفاءة القتالية .
٧- تدريب القادة على القتال والتخطيط الحربي وإدارة المعارك .
٨- محو الأمية وطلب العلم وهو من المبادئ العامة التي روعيت في الجيش.
٩- تأمين المسلمين ضد الإصابات في أثناء الحرب باتخاذ التدابير الوقائية لتأمين سلامة القائمين بالتدريب والمشرفين عليه والقريبين من ميدانه على حد سواء .
١٠- التدريب على صيانة الأسلحة والمعدات لتحقيق مبدأ السلاح الكفء في يد المقاتل الكفء .
١١- تكريم المعلم في الجيش تقديراً لدوره المهم في بناء الكفاءة القتالية في إطار المبدأ العام الذي جعل للمعلم منزلة سامية .
١٢- تطوير التدريب لملاحقة التطور في أسلحة القتال وأساليبه .

مراجع البحث

١- القرآن الكريم .

٢- ابن هشام: السيرة النبوية - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

٣- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: السنن الكبرى - مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٣٥٣هـ .

٤- أحمد بن حنبل: المسند - تحقيق وتعليق د.محمد أحمد عاشور - دار الاعتصام - القاهرة بدون تاريخ .

٥- أحمد عادل كمال: سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية - دار النفائس - بيروت - ط١- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٦- البخاري: صحيح البخاري - دار مطابع الشعب - القاهرة بدون تاريخ .

٧- جلال الدين السيوطي: جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - موسوعة السنة ط١ القاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ومابعدها .

٨- الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه: السنن - ط الحلبي بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهر .

٩- الطبري: تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ط٢ .

١٠- عبد الرءوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام - دار المعارف - القاهرة ١٩٦١م.

١١- عز الدين ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة - كتاب الشعب - القاهرة ١٩٧٠م .

١٢- علي بن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهيرة بالسيرة الحلبية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

١٣- ڤيكونت مونتجمري: الحرب عبر التاريخ- تعريب فتحي عبد الله النمر - القاهرة - ١٩٧٢م .

١٤- ليدل هارت: الاستراتيجية، الاقتراب غير المباشر - هيئة البحوث العسكرية- القاهرة ١٩٦٣م.

١٥- محمد أحمد جاد المولى وآخران: أيام العرب في الجاهلية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٩٤٢م .

١٦- محمد بن علي بن محمد الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م - ط٣ .

١٧- محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - تحقيق إبراهيم الترزي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .

١٨- محمد شمس الحق العظيم أبادي: عون المعبود بشرح سنن أبي داود - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٩هـ .

١٩- محمد عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي - مطبعة الفجالة - القاهرة ١٣٨٥هـ ط٢ .

٢٠- محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م طبعة خاصة.

الحواشي

(١) الآية الكريمة ٦٠ من سورة الأنفال .

(٢) الآية الكريمة ١٠٢ من سورة النساء .

(٣) ليدل هارت: الاستراتيجية، الاقتراب غير المباشر - هيئة البحوث العسكرية - القاهرة -١٩٦٣م - ص ١٣٥ .

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ ط٢ - جـ٤ ص١٥ - ١٦ .

(٥) محمد أحمد جاد المولى وآخرين: أيام العرب في الجاهلية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٩٤٢ - ص ٣٠ .

(٦) نفسه ص ٣٥ .

(٧) عبد الرءوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام - دار المعارف - القاهرة ١٩٦١م - ص١٣٣ .

(٨) الحديث الشريف: رواه مسلم وأحمد وأبوداود عن عقبة بن عامر - حديث رقم ٤١٩ - ٩٠٠٣ جلال الدين السيوطي: جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - موسوعة السنة ط١ القاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ومابعدها - العدد ٢٧جـ١ ص٣٣٤٨ .

(٩) الحديث الشريف: رواه أحمد والترمذي عن عقبة بن عامر - حديث رقم ٥٢٥ - ٥٠١٠ جمع الجوامع العدد ١٣؛ جـ ١ ص ١٦١٢ .

(١٠) الحديث الشريف: رواه الطبراني بمجمع الزوائد جـ٥ ص ٢٦٩ عن أبي ذر ،رضي الله عنه،

(١١) الحديث الشريف: رواه أحمد والترمذي عن عقبة بن عامر - حديث رقم ٥٢٥ -٥٠١٠ جمع الجوامع العدد ١٣؛ جـ ١ ص ١٦١٢ .

(١٢) الحديث الشريف: رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع ،رضي الله عنه، جـ٤ ص٤٥ .

(١٣) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم حديث رقم ١٥٦١ محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت ١٣٩٧هـ -

١٩٧٧م طبعة خاصة .

(١٤) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم حديث رقم ١٥٦٢ اللؤلؤ والمرجان (المرجع السابق)

(١٥) أحمد عادل كمال: سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية – دار النفائس – بيروت ط١ – ١٢٩٩هـ – ١٩٧٩م .

(١٦) الحديث الشريف: رواه البخاري جـ ٤ ص ٤٦ .

(١٧) الحديث الشريف: رواه البخاري جـ ٤ ص٤٩ .

(١٨) الحديث الشريف: رواه البخاري جـ ٤ ص ٢٧ .

(١٩) الحديث الشريف: رواه البخاري جـ ٤ ص ٣٤ .

(٢٠) عبد الرءوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام ص ١٢٤ .

(٢١) الحديث الشريف : رواه البخاري جـ ٤ ص ٣٤ .

(٢٢) الحديث الشريف: رواه أحمد ومسلم عن ثوبان، حديث رقم ٨٣ – جمع الجوامع العدد ١٠؛ جـ ١ ص ١١٦٢ .

(٢٣) الحديث الشريف: رواه البخاري جـ ٥ ص ١٧٤ .

(٢٤) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم، حديث رقم ٥٦٨ اللؤلؤ والمرجان .

(٢٥) الحديث الشريف: رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة – حديث رقم ٢٣ – ١١٥٨٣ جمع الجوامع العدد ٤؛ جـ ٢ ص ٥٩٤ .

(٢٦) الحديث الشريف: رواه أبو منده وأبو موسى – أسد الغابة جـ١ ص ٢٤١.

(٢٧) الحديث الشريف: ابن الأثير: أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٢٨) الحديث الشريف: رواه أحمد وأبو داود – الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار – مطبعة الحلبي – القاهرة ١٣٨٠هـ – ١٩٦١م – ط٣ – جـ٨ ص ٩٥.

(٢٩) الحديث الشريف: رواه أحمد ومسلم (مختصرًا منه) نيل الأوطار المرجع السابق جـ٨ ص ٩٥.

(٣٠) الآية الكريمة: ١٩٥ من سورة البقرة .

(٣١) الحديث الشريف: رواه العسكري وأبو يعلى (بلفظ أن يحكمه) – حديث رقم ٧٣٣ – ٥٢١٨ جمع الجوامع عدد ١٤؛ جـ ١ ص ١٦٨٩ .

(٣٢) الآية الكريمة: ٩٣ من سورة النحل .

(٣٣) ضمّر الفرس للسباق ونحوه: ربطه وعلفه وسقاه كثيرًا مدةً، وركضه في الميدان حتى يخف ويدق، ومدة التضمير عند العرب أربعون يومًا (المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية جـ١ ط٢ – ١٩٧٢م) .

(٣٤) الحديث الشريف: رواه البخاري جـ٤ ص٣٨ – والحفياء: موضع بقرب المدينة بينه وبين ثَنِيَّة